الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جــامعة بجــاية
قسم اللغة والأدب العربي

مداخلة مقدمة للملتقى الدولي الأول حول:

الخطاب النقدي العربي بين التنظير والممارسة.

إعداد الأستاذ: **فتحي بحه**
أستاذ بالمركز الجامعي بالوادي

عنوان المداخلة: أزمة المصطلح النقدي المعاصر وهموم الناقد الجزائري في ظل تراكمية المصطلحات.

ملخص المداخلة:

تحاول هاته المداخلة المتواضعة بيان مواطن الضعف والخلل التي تصيب جسد الدراسات النقدية الجزائرية المعاصرة من خلال الوقوف عند إشكالية المصطلح التي تمثل إحدى الفجوات الرئيسة التي تعيق الوصول إلى خطاب نقدي جزائري موحد، والحق أن الكثير من باحثينا قد اتخذ من مقولة"إن مفاتيح العلوم مصطلحاتها" نسيا منسيا وغدا يرفل في جحافل من المصطلحات المقابلة للمفاهيم والتيارات النقدية الغربية من غير فهم واضح أو دليل هاد فكثرت بذلك المصطلحات والترجمات للمفهوم الواحد مما زاد المفاهيم الغربية غموضا على غموض.

وفي هاته المداخلة نحاول التعريف بالتيارات اللسانية النصانية الأربعة (السيميائية/البنيوية/الأسلوبية /التفكيكية) وما حظيت به من العناية على مستوى البحث النقدي الجزائري المعاصر.

تقديم:

يعني المصطلح اتفاق أناس على تخصيص لفظ ما لحقل محدد، يليق بالدلالة التي يودون الانتهاء إليها من أجل ثمرة يجنونها ومصلحة يرتفقون بها وأصول معرفة يتدارسونها، خلاف الاستعمال الذي يعني في العربية الاتفاق أو المواضعة، والظاهر أن المصطلح بهاته الشاكلة في العربية لا يضارع مفهوم المصطلح في اللغات الأوروبية من حيث الاشتقاق والمعنى، لكنه يطابقه من حيث الوظيفة والدلالة، إذ هو في العربية مشتق من المصلحة لنزوعه إلى تحقيق منفعة ما، في حين نلفيه في اللغات الغربية مشتقا من الحد لنزوعه إلى تحديد المفاهيم.

والملاحظ في هذا السياق أن كل من الحقول المعرفية يصطنع مصطلحاته الخالصة له والموقوفة عليه، وذلك من نحو التخصصات العلمية والحف والصنائع والفنون على اختلافها، وتزداد اللغة سعة وثراء كلما هُيِّئَتْ لاستقبال علم جديد وهي سنة تنسحب على كل المجالات المعرفية على اختلافها.(1)

وفي مجال النقد الأدبي المعاصر أضحت المعضلة المصطلحية من أهم القضايا التي تثير جدلا واسعا واهتماما كبيرا بين صفوف الناقد المعاصرين لما لها من الأهمية في تشكيل الممارسة النقدية المعاصرة في كل مرحلة من مراحل تاريخ الوعي الأدبي، حيث تطرح إشكالية المصطلح وعلاقتها بالنص وتتابع التساؤلات حول حدودها المعرفية، إذ من غير اليسير بلوغ هاته الحدود، إلا إذا تم الانفتاح على جملة الرؤى المقدمة من قبل النقاد أنفسهم، فمثلا ينظر"عبد القادر القط" إلى المصطلح بِعَدِّهِ مفهوما متغايرا من ناقد إلى آخر وهو يرى بموجب هذا المفهوم أن هناك دلالات متعددة للمصطلح الواحد وبذلك فهو يدعو النقاد إلى تحديد مصطلحاتهم بأنفسهم حتى يمكن التعامل معها، ذلك أن تحديد المصطلح ليس من السهولة بمكان، معنى ذلك أنه إذا ما حدد فإنه يحدد من مواقع مختلفة، وانتماءات متباينة تبعا للنقاد والتزاماتهم ومواقفهم فيقول:"ومفهوم المصطلح من المشكلات العويصة في تفكيرنا اليوم، فهو لا يحمل تعريفا منهجيا محددا نستطيع من خلاله أن نتبين موقفنا منه، ولكل كاتب تعريفه الذي يحمله، والذي لا يوافق الآخر عليه، ولهذا السبب فإن كل باحث معاصر مطالب بأن يقدم بين يديه مفهوما للمصطلح لكي يكون الآخرين على بينة من أمرهم في تعاملهم معه".(2)

هاته الدعوة لا تختلف كثيرا عن اقتراح "شكري عياد" الذي دعى إلى: أن الناقد الذي يقدم مصطلحا جديدا بالنسبة للنقد العربي، بالنسبة إلى لغة النقد المألوفة، عليه واجب أيضا أن يكون الناقد له رؤية لهذا المصطلح.(3)

ويرى "عبد النبي اصطيف" أن المهتمين بالنقد العربي الحديث سئموا فوضى المصطلحات التي تسود هذا الحقل المعرفي، ذلك أن هاته الفوضى العارمة قادت المعنيين بهذا النقد وبدرجات متفاوتة إلى حيرة مربكة، وتشمل التفكير والتعبير والفهم والتواصل والتحاور والتناظر، وماذا يبقى من النقد الأدبي إن تعرضت جوانبه المختلفة لهذا الاضطراب المقلق.(4)

فهو يرفض تعدد الوعي أو الوعي المتعدد لمفهوم المصطلح لأنه يخشى أن يضمنه القارئ معنى خاطئا للمفهوم الذي أراده له صاحبه مما قد ينتج عنه إدراك غير سليم للمفهوم لِكُنْهِ المصطلح.

إذا فالمصطلح الذي لا يشير إلى دلالات معرفية محددة سيُحْدِثُ لا محالة إرباكا داخل الواقعين: الثقافي والحضاري اللذين ارتبط بهما، وحري أن يحدث فوضى واضحة في الدلالات المعرفية عند أصحاب الأطر الثقافية والمعرفية المتغايرة.

هذه الفوضى التي ارتبطت بالمصطلح النقدي الذي أفرزته أطر ثقافية مختلفة عن أطرنا الثقافية والمعرفية في العالم العربي، هي حقيقة يجب على النقاد المعاصرين التسليم بها للخروج من الأزمة، بدلا من اتهام كل من يختلف مع الآخر بالتقصير.

واضح للعيان إذا أن إشكالية المصطلح إشكالية أساسية، إذ أننا نواجه مصطلحات مختلفة، وربما نواجه مصطلحات بمفاهيم متعددة، كما ذهب "أندريه مارتين ي" وهو ما يفرض علينا أن نجتهد في ألا نستعمل مصطلحات خاصة بهذه الدراسة أو تلك دون أن نحددها، ودون تبرير استعمالنا لها(5)، فالناقد في الحقيقة يخشى اختلاط المفاهيم واضطراب الحدود بينها، وهو ما حدا بعدد من النقاد للدعوة إلى إيجاد آليات للروابط الأدبية المبنية على اتصالات حقيقية في شكل ملتقيات أو مجالس علمية، أو مجالات مخصصة تطبق فيها هاته المفاهيم المشتركة وتجسدها حتى تصبح معلومة ومشبعة بمفهوم معين للوصول إلى دلالات معرفية نقدية شبه متفق عليها.(6)

أما "عبد الملك مرتاض" فقد حذر من خضوع الناقد العربي للنقد العربي خضوعا تاما ودعى إلى التمعن فيه واستيعابه قبل تعميمه في الكتابات العربية المعاصرة يقول:"إن الكثير من المصطلحات لا يفهمه حتى الذين يروجون له في كتاباتهم...لأن هذه المصطلحات في الغرب نفسه في فرنسا نفسها، تجد النقاد غير متفقين عليها، فكيف إذا يجيز أحدنا لنفسه أن يترجم باجتهاد هذا المصطلح أو ذاك، ثم يتعصب له ويروج له ويعممه في الكتابات العربية المعاصرة".(7)

يطرح "عبد الملك مرتاض" قضية تعامل الناقد العربي مع المصطلحات النقدية الغربية، ويرى أن النقل المباشر عن الحداثة الغربية يفتح الطريق أما تبعية ثقافية لا حدود لها، ثم إننا نركب إثما عظيما حينما ننقل المصطلحات النقدية الغربية وهي مشحونة بشحنة دلالية وفلسفية محددة تحمل كل العوالق المعرفية لثقافة تختلف تمام الاختلاف عن الثقافة العربية دون إدراك بَيِّنٍ لحقيقة هذا الاختلاف، ومن هنا تتجلى جسامة الخطر في الترويج لهاته الشاكلة من المصطلحات فيما نراه من الافتتان بتمثلها والالتزام بها من غير تمييز.

هاته الحقائق بدت حقيقة ماثلة في أغلب الممارسات النقدية العربية المعاصرة عموما والجزائرية خصوصا، والتي ألفت نفسها في متاهة مصطلحية تصطخب فيها المصطلحات النقدية المعاصرة الوافدة على عالمنا الشرقي في كل يوم.

والحقيقة أن كثيرا من النقاد عجزوا على هضمها والتفاعل معها فغدا كل يرفل في أغلال من المصطلحات الغربية الجديدة التي غزت ثقافتنا النقدية المعاصرة وأصيب كثير من علمائنا الأجلاء بالإرهاق والإعياء في كيفيات التعامل معها، الأمر الذي جعلني أعقد هذا المقال في محاولة لكشف اللثام عن بعض مواطن الخلل والتشظي الفكري الذي أصاب كثيرا من باحثينا وأبحاثنا النقدية المعاصرة، إذ نقدم من خلال هذا المقال قراءة في مصطلحات أربعة وقف كثير من نقادنا عاجزين أمام فك طلاسمها وفهم حقيقتها، فإننا في الوقت ذاته نجتهد في تقديم أشهر الأبحاث والباحثين الجزائريين الذين اجتهدوا في تقديم رؤاهم المختلفة في هذا المجال، هاته الجملة من المصطلحات التي تدخل في نطاق المناهج النقدية النصانية، ذلك أنه بعد أفول نجم المناهج النقدية السياقية من نقد انطباعي واجتماعي ونفسي غدا الزمان مواتيا لظهور تيارات ومصطلحات ومناهج نقدية جديدة لا تخرج عن فضاء النص إلى سياقات خارجة عنه، لقدم للقارئ جملة من الآليات التي تمكنه من فك طلاسم النصوص الأدبية الجمالية التي تتسع دلالاتها من خلال قدرتها على احتمال قراءات متعددة بمعزل عن حياة مؤلفها واعتمادا على آليات ومحددات نصية خالصة.

وهكذا وجد الناقد الجزائري نفسه أمام هذا الكم الهائل من الأفكار والمناهج والمصطلحات النقدية المعاصرة والسؤال الذي يُطرح في هذا المقام كيف كانت ردة فعل الناقد الجزائري مع هاته الحملة المصطلحية العارمة؟ وكيف تعامل هذا الأخير مع هذه الفوضى المصطلحية التي لا قبل له بها؟

إن الحقيقة التي تناولت المادة النقدية الجزائرية قبل سنة (1961) تجمع على ألا جدوى من البحث عن خطاب نقدي جزائري يستحق الدراسة والتمحيص ضمن أطر الخطاب النقدي وحدوده المنهجية والاصطلاحية وكل ما هنالك هو مجرد محاولات قليلة منتثرة في بعض الصحف والمجلات كان يدبجها بعض الكتاب من أمثال:رمضان حمود، محمد السعيد الزاهري، والبشير الإبراهيمي، وابن باديس، وأحمد رضا حوحو...وغيرهم من المشايخ الذين لا يعرف أن أحدا منهم جعل النقد شغله الشاغل، والآية على هذا كله أن خارطة النقد الجزائري لا تحيلنا على أي كتاب نقدي قبل سنة (1961) تاريخ صدور كتاب "أبي القاسم سعد الله"(محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجزائري في العصر الحديث).

وبعد هذا التاريخ جدت مستجدات حياتية كان من شأنها تغيير الحركة النقدية الجزائرية والنهوض بها، حيث أخذت تباشر دراسة النصوص الأدبية بروح أكثر تطورا يوما بعد يوم.

بيد أنها ظلت ركاما متناثرا تعوزه القراءة اللاحقة تلم شتاته وتصوغه في قوالب منهجية واضحة، فما وجد منه لم يتجاوز نطاق الدراسات الأكاديمية والنمطية الهادفة للحصول على شهادة جامعية كما فعل عدد من الباحثين من أمثال: محمد مصايف، وعمار بن زايد، وعبد الله قرين وغيرهم.(8)

بين هاته الانكسارات والفجوات التي اعترت الممارسة النقدية الجزائرية، وما كان يمارس عليها من نقد وتقعيد تأتي هاته المداخلة لتقف عند حدود هاته التجربة وتغوص في جانب من جوابها ألا وهو جانب المصطلح النقدي المعتمد والذي كان مثار جدل بين مختلف النقاد، إذ غدا كل يدلو بدلوه في هذا المجال فلم يكن هناك موقف واضح ولا مبدأ موحد من قبل هؤلاء النقاد في التعامل مع هذا الكم الهائل من المصطلحات النقدية المعاصرة، وسنقف كما أسلفنا الذكر في هاته المداخلة بين حدود مصطلحات أربعة كانت مثار جدل كبير في التجربة النقدية المعاصرة ألا وهي مصطلحات: (البنيوية/الأسلوبية/السيميائية/ التفكيكية).

أولا/البنيوية:

تأتي كلمة البنيوية من أصل لاتيني (Structure) ومعناها البناء بمفهومه العادي المألوف المتداول، يقول "جورج مونان":"إن كلمة بنية ليست لها رواسب وأعماق وميتافيزيقا، فهي تدل أساسا على البناء بمعناه العادي".(9)

وفي اللسان يقال:"بنية مثل رشوة ورشا، وكأن البنية الهيئة التي يبنى عليها مثل المشية الركبة بكسر الميم".(10)

وفي الفرنسية تحمل كلمة (Structure) مدلولات كثيرة منها: النظام (Ordre)، والتركيب (Constutition)، والترتيب (Disposition)، والشكل (Forme)، والهيكلة (Organisation).

كما استخدم المصطلح في علوم مختلفة ولاسيما في الكيمياء وعلم الاجتماع والاقتصاد والجيولوجيا... ولم يعرف التحديد الدقيق إلا في عام (1926) على يد حلقة براغ التي حددت دلالته النهائية.(11)

والحق أن البنيوية هي الواجهة المنهجية للسانيات الآنية " Synchronique"، ذلك بأن "الآنية ـ التي هي قوام الفلسفة البنيوية ـ تمثل مبدأ الرؤية الأفقية لأنها مقولة لا تؤمن بالأشياء إنما تؤمن بالعلاقات الرابطة بين الأشياء"(12)، على عكس الدراسة الزمانية أو التطورية التي تؤكد على أن حقيقة الظواهر كامنة في غيرها لا في ذاتها.

وإذا كانت البنيوية قد شهدت سنوات رخائها في أوروبا خلال الخمسينات والستينات، فإن البنيوية لم تظهر في النقد العربي إلا خلال السبعينات بفضل الإسهامات البارزة التي قدمها: "حسين الواد" (البنية القصصية في رسالة الغفران)، و"صلاح فضل" (نظرية البنائية في النقد الأدبي)، و"كمال أبو ديب"(جلية الخفاء والتجلي)، وبعض البنيويين الشكلانيين من أمثال: "يمنى العيد"، "محمد بنيس"، "جابر عصفور"...

وقد تنازع البنيويون العرب تنازعا كبير في ترجمة المصطلح (Stucturalisme)، فإذا نحن أمام ما يقارب العشر ترجمات: (البنيوية، البنوية، البنيية، البنائية، الهيكلية، التركيبية، الوظيفية، البنيانية...).(13)

وفي الجزائر لا يختلف اثنان في ريادة الدكتور"عبد الملك مرتاض" للبنيوية (وما بعدها) في الخطاب النقدي الجزائري المعاصر.

وتبرز عدد من الأعمال الأدبية التي يمكن وسمها بالبنيوية من شاكلة كتاب (الألغاز الشعبية الجزائرية) عام (1979) الذي أفصح فيه مؤلفه "عبد الملك مرتاض" عن سلوكه المنهج البنيوي في القسم المنصب على دراسة نصوص الألغاز الشعبية لغة وأسلوبا.(14)

كما نشر الدكتور "عبد الحميد بورايو" في وقت مبكر من حياته النقدية دراسة يمكن إدراجها في هذا النطاق بعنوان: (قراءة أولى في الأجسام المحمومة) تناول فيها دراسة البنية السردية والقصصية للأجسام المحمومة للكاتب "إسماعيل غموقات"، وذلك باعتماد إجراءات مصطلحية جديدة، والحق أن هاته التجربة لم تأخذ شكلها المنهجي المتكامل نسبيا إلا في كتابه: (القصص الشعبي في منطقة بسكرة)، والذي يمكن عده أول تجربة (بنيوية تكوينية) تطبيقية في الخطاب النقدي الجزائري، كان مؤلفها قد اعتمد فيها على مصطلحات بنيوية خالصة من شاكلة: (الوظيفة Fonction ،المتتالية Séquence ، الإخبار Epreuve ، الممثل Acter ، الاستتباع Implication...).(15)

ومن النماذج الأخراة التي حاولت التأسيس للفكر البنيوي في لجزائر كتاب: (مدخل إلى التحليل البنيوي للنصوص) الذي اشتركت فيه عدد من المؤلفات من جامعة الجزائر أمثال:"دليلة مرسلي"، و"نجاة خدة" ، و"كريستيان عاشور"...، وتبدو في الكتاب المشكلة المصطلحية بجلاء حين نصطدم بترجمات غير معهودة وغير مستساغة، من قبيل:(العلمداتي)" Sémantique"، و(الفعلان) "Actant"، و(مجسادية)"Stéréoscopique".(16)

ومن النماذج الجريئة في هذا المجال كتاب:(بنية الخطاب الأدبي) للدكتور "حسين خمري" وهي دراسة نظرية تنحاز إلى المنهج البنيوي انحيازا واضحا، وتقدم هذه الدراسة جهازا مصطلحيا جديدا.

ينضاف إلى ما ذكر نماذج أخراة للدكتور "رشيد بن مالك ، وشايف عكاشة ، إبراهيم رماني" وغيرهم كثير.

والحق أقول أن كل من هاته الدراسات اعتمد جهازا مصطلحيا خاصا انفرد به عن غيره وفق ما يخدم رُأَهُ وأهدافه المنهجية، فترجمت إذ ذاك مصطلحات العلم الجديد ترجمات مختلفة تخدم الخلفيات والمرجعيات المختلفة لكل كاتب، وهو ما يوقع دارس هذا المنهج النقدي في حيرة من أمره حينما يقف على هذا الكم الهائل من المصطلحات المترجمة ، وفي مدى دقتها ووفائها بالمعنى المقصود.

إن حقيقة كهاته تجعل العلم الجديد أكثر تعقيدا من كونه أداة قد تسهم في فك طلاسم النصوص الأدبية ، وفي إماطة اللثام عن بعض جوانبها الخفية التي لا يمكن الوصول إليها من طريق غيرها من المناهج النقدية.

ثانيا/السيميائية:

القول بمصطلح (Sémiologie) يستدعي ـ حتماـ إدراك المفهوم الإغريقي للحد (Sémion) الذي يحيل على:"سمة مميزة (Signe précurseur)، دليل (Preuve)، علامة منقوشة أو مكتوبة (Signe grave ou écrite)، بصمة (Empreinte)، تمثيل تشكيلي (Figuration)...".(17)

هذه العلامات اللغوية وغير اللغوية هي الموضوع الأساسي والمفترض للعلم الجديد الذي نشأ في نهايات القرن التاسع عشر، والذي بشر بميلاده العالم السويسري "فرديناند دي سوسير" (F De Saussure) في كتابه:(محاضرات في اللسانيات العامة)، والعالم الأمريكي "شارل سندرس بيرس" (C S Peirce) في فترة زمنية متقاربة، وقد أخذ هذا العلم الجديد اسم السيميائية (Sémiotique) والسيميولوجيا(Sémiologie) على التوالي.

بيد أن احتفاء الباحثين بهذين القطبين السيميائيين لا ينفي أن يكون المصطلح قد استعمل قبلهما في سياقات متقاربة، فقد استعمل "أفلاطون" مصطلح (Semiotike) إلى جانب مصطلح (Grammatike) بمعنى تعلم القراءة والكتابة، في اتساق مع الفلسفة أو فن التفكير، وقد استعمل مصطلح (Sémiologie) ابتداء من (1752) في المجال الطبي بمعنى (الدراسة النسقية للأعراض المرضية) مرادفا لمصطلح (Symptomatologie).(18)

ومع الجهاز الاصطلاحي المكثف والمعقد الذي تقدمه آليات القراءة السيميائية، تزداد أزمة المصطلح النقدي العربي الجزائري بحدة بالشكل الذي سنوضحه من خلال الوقوف على هذه الجملة المصطلحية التي يتضمنها الحقل السيميائي.

والحق أن خاطا كبيرا بين الباحثين والنقاد في اعتماد المصطلحات، وتساهل بعضهم الآخر في هذا التعامل كما يذكر الدكتور "عبد الملك مرتاض" كما يحصل الأمر مع "مصطلح السيميائية، والسيميائيات، والسيميولوجيا، والسيميوتيكا (السيميوتيقا)، والسيميائية وهي مصطلحنا...ولذلك نحاول أن نبدد شيئا من هذا الغموض، ونقوم أطرافا من اعوجاج هذا الاضطراب...آملين أن نخفف من غلواء الاختلاف دون الطمع في القضاء عليه نهائيا، إذ ذاك أمر عسير المنال".(19)

ذلك أن المصطلح النقدي بعامة، والمصطلح السيميائي بخاصة لا يزال يتبوأ في مجال الدراسات الحداثية المنزلة الأولى من الاهتمام، وما ذلك إلا لحداثة المعاني التي يستحدثها في كل

حين، وإذا كان المصطلح بكل إشكالياته المعرفية وتعقيداته المفهومية في المشروع النقدي المعاصر قد غدا هاجسا لدى كل المنشغلين في هذا الحقل، فإن هذا الإشكال يزداد استفحالا يوما بعد يوم، ذلك أنه أضحى من الضروري نقل هذا الكم الهائل من المفاهيم السيميائية واللسانية المستجدة والمعقدة غالبا عن تلك اللغات الأوروبية إلى اللغة العربية التي نلفي أن كل واحد من باحثينا راح يجهد نفسه كل الجهد في الاشتغال على هاته المصطلحات في عزف منفرد، فتكثر إذ ذاك الجهود ولكن من غير فائدة.(20)

وقد انتقلت السيميائية إلى الوطن العربي خلال الثمانينات، ومن الأسماء التي أسست لها في نقدنا العربي المعاصر نذكر بوجه خاص الجناح المغربي:"محمد مفتاح"، و"عبد الفتاح كليطو"، و"محمد الماكري"، إضافة إلى عدد من الأسماء الموزعة هنا وهناك من شاكلة "عبد الله الغذامي" في لسعودية، و"عبد الملك مرتاض"، و"عبد القادر فيدوح" بالجزائر، و"قاسم مقداد" في سوريا...

وكشأنهم في استقبال كل جديد فقد تنازعت هؤلاء حيرة في ترجمة المصطلح، فإذا نحن أمام ركام اصطلاحي كبير من نحو:(السيميائية، السيميولوجية، السيميوطيقية، العلاماتية، الإشارية، علم العلامات، علم الإشارات، الأعراضية، الدلائلية، الدلالية...).(21)

والظاهر أن هاته العدوى الاصطلاحية التي أصابت كثيرا من الكتابات النقدية العربية قد انتقلت إلى عدد من الكتابات النقدية الجزائري المعاصرة عامة وفي حقل السيميائيات خاصة، بحث يحصي الدكتور"عبد الله بوخلخال" لهذا المفهوم ما يزيد عن عشرين (20) ترجمة، ومثله فعل الدكتور"يوسف وغليسي" الذي يذكر ستا وثلاثين (36) ترجمة للتفريق بين مفهومي: (Sémiotique) و(Sémiologie).

وتبدو التجربة النقدية الجزائرية المعاصرة مثقلة بهاته الفوضى المصطلحية، فقد استهل الدكتور"عبد القادر فيدوح" تجربته النقدية (السيميائية) في مطلع التسعينات بكتاب (دلائلية النص الأدبي)، وتحته عنوان جانبي صغير "دراسة سيميائية للشعر الجزائري"، ويبدو فشل الكاتب في تنظيم جهازه المصطلحي منذ الوهلة الأولى، إذ يستعمل مصطلحي (دلائلية وسيميولوجية)، والحق أن كلمة (دلائلية) هي المقابل الرئيس لكلمة (Sémiotique)، وتبدو الأمور بشكل أكثر تعقيدا ربما حينما نلفي الكاتب نفسه يستعمل مصطلحات أخراة (كالتأويلية، والسيميولوجية، والسيميوطيقية)، فيغدو عدد المصطلحات خمسة للدلالة على مفهوم واحد.

ويبدو أن الكاتب لم يميز بين مفهومي (الأيقونة) و(القرينة)، بحيث يجعلهما اسمين لمسمى أجنبي واحد (Indice)، ثم خلطه الواضح بين مفهوم (الشكلية) (Formalisme) و(الظاهراتية)(Phénoménisme).(22)

ومن الأسماء (السيميائية) الجزائرية التي لا ينبغي تجاهلها نذكر: "حسين خمري" الذي قدم عدة دراسات في الدوريات تتناول المصطلحات السيميائية، من ذلك ما ورد في دراسته: ("ما تبقى لكم" العنوان والدلالات) التي أسس فيها لعلم العنونة في الخطاب النقدي الجزائري، وكذا دراسته المطولة (سيميائية الخطاب الروائي) التي تعرض فيها لرواية "عبد الملك مرتاض" (صوت الكهف) برؤية سيميائية.

وقد أفادت الدراسة السالفة منهجيا ومصطلحيا من طروحات "غريماس"و"وبارت" و"بروب" وغيرهم، وقد أفلح صاحبها في نقل بعضها إلى العربية وأخفق في بعضها الآخر، بحيث ترجم مصطلح (Contenu inverse) بـ (المضمون المقلوب)، ومصطلح (Anti héros) بـ (متقبل السرد).(23)

وتجدر الإشارة في هذا المقام إلى الأعمال التي قام بها عدد من الباحثين الجزائريين في هذا الصدد من أولئك نذكر:"رشيد بن مالك"، و"عبد الحميد بورايو"، و"أحمد شريبط"، و"بشير إبرير"... وغيرهم كثير ممن تصدوا لدراسة السيميولوجية بمنهجها ومصطلحاتها.

ثالثا/الأسلوبية:

يحلو لكثير من الباحثين والنقاد العرب المحدثين إطلاق مصطلح الأسلوبية (Stylstics ، Stylistique) على العلم الجديد الذي يتناول بالدراسة كل مظاهر الجمال اللغوي في النصوص الإبداعية مستندين في ذلك على مفهوم (الانزياح) الذي غدا وريثا لكل أنماط الأساليب البلاغية القديمة.

ويحدده بعض الباحثين بـ"تطبيق المعرفة اللسانية (Linguistic Knowledge) في دراسة الأسلوب".(24)

والأسلوب (Style) اصطناع لغوي مستحدث نسبيا، يمتد إلى الكلمة اللاتينية (Stilus) التي كانت تطلق على"مثقب معدني يستخدم في الكتابة على الألواح المشعة (المدهونة)"(25)، ثم تطورت دلالتها عبر القرون لتصل إلى ما هي عليه اليوم من معالم.

وتعود الأسلوبية بالمفهوم الجديد ـ في الحق ـ إلى بدايات القرن العشرين مع أحد تلامذة "دي سوسير" السويسري "شارل بالي" في كتابه (مبحث في الأسلوبية) سنة (1909).

وابتداء من هذا التاريخ بدأ الاهتمام بالدراسات الأسلوبية يتزايد تدريجيا مهتديا في كل ذلك بالمعطيات اللسانية، ومتقاطعا مع حدود علمية أخراة كالبلاغة وفقه اللغة والنقد الأدبي وعلم العلامات...

والحق أن الأسلوبية تقوم على حقيقة مؤداها أن اللغة تهب المتكلم جملة من الاحتمالات والوسائل اللغوية للتعبير على المفهوم الواحد بعدة أساليب يختار واحدا من بينها وفقا لقصد تأثيري وإبلاغي محدد، هاته الإمكانات هي ما تسمى بالمتغيرات الأسلوبية.(26)

وقد انتقل مصطلح (Stylistique) إلى العربية بتسميات ليست كثيرة همن عليها المقابل الشائع (الأسلوبية) الذي تفوق تداوليا على غيره من البدائل الاصطلاحية من نحو: (الأسلوبيات) الذي يعتمده "سعد مصلوح"(27)، و"رابح بوحوش"(28)، و(علم الأسلوب) المتوازي مع الأسلوبية في (معجم مصطلحات علم اللغة الحديث)، و(المعجم الموحد لمصطلحات اللسانيات)، و(قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية) لـ"إيميل يعقوب" ومجمل الكتابات المصرية، أو(علم الأساليب) الذي شاع استعماله في الكتابات اللبنانية خاصة، في حين نلفي الدكتورة "عزة آغا" تستعمل مصطلح (علم الإنشاء) في نطاق محدود جدا مقابلا للمصطلح الأجنبي.(29)

والأمر الذي يجب ألا يغيب عن أحد منا هو أن حضور مصطلح (الأسلوبية) في التجربة النقدية الجزائرية المعاصرة حضور شرفي ليس إلا، وما هو كائن منه لا يعدو أن يكون شيئا من الاجتهادات القليلة في النطاق الأكاديمي التي لم تتخذ هذا المجال الدراسي حقلا للبحث والدراسة وشغلا شاغلا تسهم من خلاله في تنشيط الحركة النقدية الجزائرية.

أما خارج النطاق الأكاديمي فلا نعثر إلا على لمسات أسلوبية محدودة عند الدكتور"عبد الملك مرتاض" بدت بجلاء في كتاب له وسم بـ :(دراسة في أسلوبية الأمثال الشعبية الجزائرية)، تعرض فيها بشيء من الاقتضاب لمفهوم الأسلوبية وتاريخها، ثم أردفها بجانب تطبيقي، وقد بدا من خلال هاته الدراسة اعتماد المؤلف على مصطلح واحد في مقابل المصطلح الأجنبي (Stylistique).

الأمر ذاته ينسحب على كتاب (بناء الأسلوب في المقالة عند الإبراهيمي) للأستاذ "عبد الحميد بوزوينة" الذي استأنس فيه بعدد من الآراء والمصطلحات المعتمدة من قبل "عبد السلام

المسدي" و"صلاح فضل" و"أحمد الشايب"...، ويبدو المؤلف متأثرا بهؤلاء في تناول جهازه المصطلحي ولم يخل البحث من الإفادة البارزة من كتابات "عبد الملك مرتاض" في استعماله لبعض المصطلحات من شاكلة: (السلم الصوتي)،(الوتد الكلامي)،(البنية الإفرادية)،(البنية التركيبية)...

كما يستحدث الكاتب دلالات جديدة لبعض المصطلحات من ذلك: (الأفعال المساعدة) للأفعال التي تدل على أحداث محددة وواضحة على عليه الأمر في اللغة الأجنبية (Etre) و(Avoir).

أما الدكتور"رابح بوحوش" فقد استخدم مصطلح (البنية اللغوية) بديلا لمفهوم (البنية الأسلوبية) في كتابه: (البنية اللغوية لبردة البوصيري) في دراسة سعى فيها إلى إبراز الملامح اللغوية والأسلوبية للمميزة للبردة.(30)

وفيما عدا هذا فقد غابت ملامح المنهج الأسلوبي بمصطلحاته في النقد الجزائري المعاصر إلا من النذر اليسير من الدراسات والمقالات في مختلف المجلات والدوريات.

رابعا/ التشريحية:

إذا كانت البنيوية قد راهنت طويلا على أهمية النمط اللغوي ونظامه الشكلاني الصِّرْف، فإن كان ذلك المنطلق الرئيس لوسمها بالتجريد والاختزالية، مما يقدم المبرر الكافي لظهور حركة نقدية جديدة تختلف عنها ولكنها تتقاطع معها سميت(ما بعد البنيوية) والتي دعت إلى بعث الدم الجديد في جسد البنيوية المرهق.

وإذا كانت الجذور الأولى للتفكيكية تعود لبعض الفلاسفة الألمان (هيدجر، هسرل...)، فإن المنظر الأول لها هو الفرنسي المولود بالجزائر "جاك دريدا"(J Derrida) الذي أرسى معالمها في أواخر الستينات من خلال ثلاثة كتب له صدرت دفعة واحدة عام (1967)(31)، متخذا منها سلاحا في مواجهة الفكر الميتافيزيقي الغربي.

والتفكيكية هي المقابل الشائع لمصطلح (Déconstruction) الذي اكتفى بعض من النقاد العرب المعاصرين بنقله إلى (التفكيك)، في حين نلفي الدكتور"عبد الله الغذامي" يستعمل مصطلح (التشريحية) بديلا للمصطلح الجديد، وقد اقترح آخرون تسميته بـ(التقويضية)، وقد بدا ذلك جليا عند الدكتور"عبد الملك مرتاض" وبعض النقاد السعوديين.(32)

وقد وسعت هاته الحركة الهوة الدلالية بين الدال والمدلول، وحولت كل دال إلى لون من الحرباء التي تتبدى في ألوان مختلفة مع كل سياق جديد، وينصب القدر الكبير من جهد حركة ما بعد البنيوية على تتبع أشكال هذا التقلب الدائم لحركة الدال، وذلك في تشكيله مع بقية الدوال الأخراة سلاسل وتيارات متقاطعة من المعنى.(33)

وتستند التفكيكية إلى جملة من المبادئ الرئيسة نجملها في: (34)

موت المؤلف وميلاد القارئ، القراءة والكتابة، اغتيال الدلالة الواحدة وتشتيت المعنى، الحركية الدائمة للغة، التناسخ النصي.(35)

وإذا كانت التفكيكية قد لاقت رواجا واسعا عند عدد من النقاد الغربيين، فإن رواج هاته النظرية أو هذا المنهج النقدي في ثقافتنا النقدية العربية المعاصرة لم يكن بالقدر ذاته التي كان عند الغربيين، وما يمكن قوله في هذا الصدد أن نقدنا العربي المعاصر حديث عهد بالتفكيكية التي تعود بالضبط إلى سنة (1985) وهي السنة التي حاول فيها الدكتور السعودي "عبد الله الغذامي" من خلال كتابه الموسوم بـ"الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية قراءة في نموذج إنساني معاصر"، حيث ألفينا الكاتب يستعمل مصطلح (التشريحية) مقابلا للمصطلح الأجنبي (Déconstruction).

أما خارج حدود الغذامي فلا نلفي دراسة عربية تفكيكية واضحة، إلا مغلفة بمفاهيم (نظرية القراءة) على النحو الذي ورد عند الكاتب التونسي "حسين الواد" في تجربة وسمها ب"القراءة والنصوص أو جدلية الحد والإنعتاق"، إضافة إلى تجارب أخراة أشار إليها "فضل ثامر" في دراسته "من سلطة النص إلى سلطة القراءة".

أما في الجزائر فيبدو "عبد الملك مرتاض" رائدا في هذا الميدان الفسيح من خلال كتابه"ألف ليلية وليلة ـ تحليل سيميائي وتفكيكي لحكاية جمال بغداد" سنة (1986)، والظاهر أن الكاتب قد استعمل مصطلح (التفكيك) و(التفكيكية) بديلا للمصطلح الأجنبي خلاف للغذامي مما ينم على اختلاف وجهات النظر، وقد بدا المصطلح ذاته أكثر جلاء عند مرتاض في كتابه (دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة أين ليلاي لمحمد العيد) الذي نشره عام (1992)، ثم أردفه بأعمال أخراة من الشاكلة نفسها في استعمال المصطلح.

وخلاف هذا فإن الباحث في صفحات النقد الجزائري المعاصر لا يلفي للنقد التفكيكي أثرا بينا إلا في بعض الاجتهادات البسيطة التي وردت عند بعض الكتاب من ذلك دراسة مقدمة من

لدن الكاتب الجزائري"الطاهر رواينية" بعنوان (الكتابة وإشكالية المعنى ـ قراءة في بنية التفكك في رواية تجربة في العشق للطاهر وطار)، ويبدو أن الكاتب قد اعتمد مصطلح (التفكك) ترجمة للمصطلح الأجنبي، حيث استعمل عددا من مفاهيم هذا المنهج النقدي من شاكلة: (الكتابة، القراءة، التصدع السردي، التناص...).(36)

إن الحقيقة التي لا يمكن إنكارها هي أن النقد التفكيكي ورغم إفادة كثير من الباحثين من الملتقيات العلمية على المستوى الجامعي والرحلات العلمية إلى الخارج وفرنسا بالتحديد، إلا أن هذا النقد في كثير من الأحيان بقي حبيس المعضلة الاصطلاحية التي ما فتئت تمارس تعددا اصطلاحيا مريرا فرض نفسه عليها نظرا لانعدام الوعي الحقيقي بهاته المفاهيم التي تداخل بعضها مع البعض الآخر بين البنيوية والتفكيكية والسيميائية، فاستعمل عدد من النقاد مصطلح (التشريحية)، و(التقويضية)، كما ورد عند "الغذامي" و"ميجان الرويلي" (37)، في حين آثر عدد آخر من النقاد الجزائريين خاصة استعمال مصطلح (التفكيك والتفكيكية) بديلا للمصطلح الأجنبي مما أوقع القارئ والباحث في حيرة التنسيق بين هاته المصطلحات وفي مدى قربها من المفهوم الحقيقي لهذا المنهج النقدي.

والحق أن أزمة النقد العربي المعاصر عموما مع المصطلح قد بدأت منذ بداية ظهور النقد الألسني الجديد، إذ غدا من العسير العثور على تجربة نقدية لا تعاني من علة التعامل مع المصطلح المعاصر خصوصا إذا ما كان صاحبها غير متشبع بالتراث أو كان محدود الثقافة الألسنية، ومن مظاهر ذلك ما يتبدى جليا في التساهل البين الذي يلحظه الباحث عند بعض الدارسين في استعمال المصطلح من أمثال "عبد الله حمادي" مع المفاهيم الألسنية الصارمة، حيث نلفيه يجعل من:(علم الدلالة وعلم العلامات ، والسيميوطيقا) أسماء لمسمى واحد، ومن: (العلامة والرمز والدال) ثلاثة مفاهيم مترادفة كذلك من خلال دراسته (تأمل في الخطاب الشعري المعاصر من منظور دلالي).(38)

وعن هاته الشاكلة من المزالق والتساهل المصطلحي في الخطاب النقدي العربي المعاصر قدم الكاتب السوري"شوقي بغدادي" مقالة بعنوان:(المسخ اللغوي من سوء التفاهم إلى سوء الخلق) ردا على مقالة بعنوان:(انسحاب الكتابة) للكاتب الجزائري "بختي بن عودة"، نعى فيها عليه لغته المعقدة الغامضة في صياغتها ومصطلحاتها، وقد ناقشه في كثير من التركيبات اللغوية والمصطلحات التي لم تكن مألوفة موفقة لغويا ومعرفيا.

وفي ظل هاته الأزمة المصطلحية الحادة ندعو كل النشطين في هذا الميدان البحثي الفسيح للإدلاء بدوهم في فك عزلة النقد العربي للنهوض به من أزمته هاته من خلال الاتفاق على عدد من الآليات التي تمكنهم من توحيد المفاهيم والمصطلحات، إذ أن مفاتيح العلوم مصطلحاتها، ومن غير اليسير بلوغ حدود هاته العلوم النهائية إلى بالاعتماد على جهاز مصطلحي موحد ودقيق يفتح أمامنا المجال فسيحا لبلوغ الغايات من هاته الدراسات والعلوم.

الإحالات:

(1) ينظر: عبد الملك مرتاض: نظرية النص الأدبي، دار هومة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط 2007، ص 19، 21.
(2) جهاد فاضل: أسئلة النقد، الدار العربية للكتاب، القاهرة، ص 212.
(3) المرجع نفسه، ص 168.
(4) عبد النبي اصطيف:المصطلح الأدبي في الثقافة العربية الحديثة (مشكلات الدلالة ومواجهتها)، نشر مجلة مجمع اللغة العربية، دمشق، مجلد 75، 188/1.
(5) علي خذري: هموم الناقد الربي المعاصر في: المصطلح ، المنهج، المثاقفة ، مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة باتنة ، الجزائر، العدد 9 ، جانفي 2004 ، ص 143.
(6) ينظر: المرجع نفسه ، ص 143.
(7) جهاد فاضل: أسئلة النقد ، ص 220.
(8) ينظر: يوسف وغليسي: النقد الجزائري المعاصر من اللانسونية إلى الألسنية، إصدارات رابطة الإبداع الثقافية ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، الجزائر ، ط 2002 ، ص 9 ، 10.
(9) زبير دراقي: محاضرات في اللسانيات العامة والتاريخية ، الديوان الوطني للمطبوعات الجامعية ، الجزائر ، ط 1990 ، ص 110.
(10) جمال الدين بن منظور: لسان العرب ، ت علي بشري ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ط 1988 ، 510/1.
(11) ينظر: خثير ذويبي: البنيوية والعمل الأدبي دراسة بنيوية شكلانية لمرثية مالك بن الريب، مطبعة موساوي ، سطيف ، الجزائر ، ط1 ، 2002 ، ص 23 ، 24.
(12) عبد السلام المسدي: اللسانيات وأسسها المعرفية ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، ط 1986 ، ص 129.
(13) ينظر: يوسف وغليسي: النقد الجزائري المعاصر من اللانسونية إلى الألسنية ، ص 121 ، وينظر: ميجان الرويلي وسعد البازعي: دليل الناقد الأدبي ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط 2 ، 2002 ، ص 32 ، 33.
(14) ينظر المرجع نفسه ، ص 122.
(15) ينظر المرجع نفسه ، ص 126 ، 127.
(16) ينظر المرجع نفسه ، ص 128.
(17) يوسف وغليسي: مناهج النقد الأدبي المعاصر ، دار جسور للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ط1 ، 2007 ، ص 93.

(18) ينظر: يوسف وغليسي: مناهج النقد الأدبي المعاصر، ص 95 ، 96 ، وينظر: ميجان الرويلي وسعد البازعي: دليل الناقد الأدبي ، ص 106 ، 107.
(19) عبد الملك مرتاض: نظرية النص الأدبي ، ص 145.
(20) ينظر: المرجع نفسه ، ص 137 ، 139.
(21) ينظر: يوسف وغليسي: مناهج النقد الأدبي المعاصر، ص 101 ، 107 ، وينظر: يوسف وغليسي: النقد الجزائري المعاصر من اللانسونية إلى الألسنية ، ص 133.
(22) ينظر: يوسف وغليسي: النقد الجزائري المعاصر من اللانسونية إلى الألسنية ، ص 134 ، 137.
(23) ينظر: المرجع نفسه ، 137 ، 139.
(24) يوسف وغليسي: مناهج النقد الأدبي المعاصر، ص 75.
(25) المرجع نفسه ، ص 75.
(26) ينظر: يوسف وغليسي: النقد الجزائري المعاصر من اللانسونية إلى الألسنية ، ص 143.
(27) سعد مصلوح في كتابه "الأسلوب ـ دراسة لغوية إحصائية " المطبوع بالقاهرة سنة 1992.
(28) رابح بوحوش في كتابه "البنية اللغوية لبردة البوصيري" المطبوع بالجزائر سنة 1993.
(29) يوسف وغليسي: مناهج النقد الأدبي المعاصر، ص 85.
(30) ينظر: يوسف وغليسي: النقد الجزائري المعاصر من اللانسونية إلى الألسنية ، ص 148 ، 150.
(31) الكاتب الفرنسي جاك دريدا (J.Derrida) ولد بالأبيار في 1930/07/15 ، وتوفي بباريس في 2004/10/09 ، يهودي الديانة ، ألف دريدا عدة كتب أهمها الثلاثة الآتية: الكتابة والاختلاف (Lecriture et la différence) ، والصوت والظاهرة (La voix et la phénomène) ، وفي علم الكتابة (De la grammatologie).
(32) ينظر: يوسف وغليسي: النقد الجزائري المعاصر من اللانسونية إلى الألسنية ، ص 153 ، وينظر: يوسف وغليسي: مناهج النقد الأدبي المعاصر، ص 168.
(33) يوسف وغليسي: مناهج النقد الأدبي المعاصر، ص 169.
(34) يوسف وغليسي: النقد الجزائري المعاصر من اللانسونية إلى الألسنية ، ص 153 ، 158.
(35) من أشهر مبادئ التفكيكية نذكر ما يأتي:
*موت المؤلف وميلاد القارئ: فالمؤلف مجرد ضيف ولا سلطة له على النص ودوره ينتهي عند وضع آخر نقطة ، ومن ثم يأتي دور القارئ ليعيد كتابة النص من جديد.
*القراءة والكتابة: النص يتألف من الكتابات المتعددة للقراء من خلال إضفاء المرجعيات المتعددة للقراء عليه.
*اغتيال الدلالة الواحدة وتشتيت المعنى: تحرر التفكيكية النص من المركزية الدلالية إلى عهد التعددية المعنوية.
*الحركية الدائمة للغة: يشيع في هاته النظرية مبدأ "تحت المحو" أي أن الدوال تمحو مدلولاتها الأولى وتحل في مدلولات ثواني وهكذا تستمر العملية في حركية لانهائية.
*التناسخ النصي: من هذا المنظار التفكيكي لا وجود لنص مستقل ، إذ أن كل كتابة هي خلاصة لكتابة سابقة لها.
(36) ينظر: يوسف وغليسي: النقد الجزائري المعاصر من اللانسونية إلى الألسنية ، ص 162 ، 163 ، وينظر: يوسف وغليسي: مناهج النقد الأدبي المعاصر، ص 168.
(37) ينظر: ميجان الرويلي وسعد البازعي: دليل الناقد الأدبي ، ص 53 ، وقد استعمل الأستاذ عبد العزيز حمودة مصطلح التفكيك في كتابه (المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك).
(38) عبد الله حمادي: مساءلات في الفكر والأدب ، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر ، 1994 ، ص 191.